

والكدمات والجروح، وإنما تتأتى من أذى النفس والروح معاً، في حين يعد سانشو اللطمة أو الجرح أو الندبة إهانة بالغة بأذيتها دون النظر إلى ما يلحق الروح من خراب دون جروح أو كدمات، ورأي دون كيشوت في هذا الأمر هو أن أذى الجسد يمضي إلى التلاشي والمحور والذوبان، في حين أن أذى النفس وإهانتها هما من يبقى علامة دامغة وخالدة؛ ولهذا فإن المعادلة التي تنظم رؤية دون كيشوت تتحدد وفقاً للآتي: النية الطيبة، ثم المغامرة، فالتوكيد على القيم السامية (أيًا كانت النتيجة، سلبية أو إيجابية)، في حين أن المعادلة التي تنظم رؤية سانشو تتحدد بـ: المغامرة، ثم النتائج الإيجابية، فالاستحواذ، ومن دون الاستحواذ لا قيمة لأية مغامرة في نظر سانشو أيًا كان شأنها.

وما يُلحظ في جلّ المغامرات التي خاضها دون كيشوت أن العقبة الأساسية التي كانت تواجهها لا تتمثل في ضعفه أو قلة أدواته ووسائله، ولا في كثرة أعداد خصومه أو قوة وسائلهم ونفوذهم، وإنما تتمثل في خوف سانشو الجسد دائماً على صورة ما، أو على فكرة ما، والذي كان معطلاً ومثبطاً لقوى دون كيشوت وهو يقوم بمغامراته؛ ذلك الخوف هو السمة الأساسية التي سبقت جميع المغامرات، فهو المحذر الدائم، والمخوف الأبدي لـ دون كيشوت كي لا يقع في فخ المغامرات القادمة، ولعل في المغامرة الابتدائية الأولى مع رعاة الماعز مثلاً على سمة الخوف التي يتبناها سانشو، والتي سترافقه طوال زمن الرواية قرناً مع سمة أخرى هي السخرية، فمغامرته مع رعاة الماعز ينفذها دون كيشوت على الرغم من تحذير سانشو وتخويفه له حين يصرخ به: إنهم أكثر من عشرين فألى أين تذهب؟! غير أن دون كيشوت يصرخ به أيضاً: أنا بـ مئة!! لكن النتيجة تكون بانتصار الرعاة، وبتحطيم جسد دون كيشوت وتابعه سانشو، وفرسه، وسرقة ما على ظهر حمار سانشو من أمتعة وطعام، والسخرية هي الشقّ الثاني لخوف سانشو، فقد كانت سخريته عادة تسبق الكثير من المغامرات من أجل التقليل من التعوت النبيلة التي يصف بها دون كيشوت الناس والأمكنة والأفعال. ولهذا فإن دون كيشوت كان ضد خوف سانشو وسخريته لقناعته بأنهما نابعان من عدم معرفة سانشو بأصول الفروسية وأنظمتها، وهما رذيلتان، فالخوف وليد الجبانة، والسخرية وليدة الوضاعة!

أخلص في هذا المجال إلى القول: إن هدف دون كيشوت الأساسي هو النظر إلى الأمور كما ينبغي لها أن تكون لا كما هي كائنة، فهو يريد الحلم بدءاً من السلوك اليومي إلى السلوك الديني، ولهذا كان هدفه يصطدم دائماً بعقبات